نزوى

فصلية ثقافية - العدد المائة وواحد

NIZWA 2020 - 101

العالم مُترجما

عبد الصمد الكباص*

تدعونا فكرة الترجمة إلى إعـادة تعريف العالم باعتباره حركة بين اللغات. إذ لا تتحقق فكرة العالم من حيث هو تجربة لانتماء مشترك ليس لأشكال كونية من الدلالة عابرة للغات، إلا من خلال المواجهة المستحيلة التي تقيمها كل لغة على حدودها مع لغات أخرى. فليس هناك من فرصة لفتح مجال يُعين تجربة العالم هكذا إلا عبر تحدٍ تأسيسي، يمثل وظيفة بدائية لكل لغة، بأن تتوجه إلى النقطة القصوى لاستحالتها عبر استهداف الشكل الجـذري من البرانية التي تمثلها اللغات الأخرى.

يعني ذلك أن العالم مهمة ينبغي للترجمة إنجازها. حيث تتحقق الحركة بين اللغات بوصفها استدعاء للغيرية المتعذرة على الاختزال، والتي تتبدى في المجال الذي تعمل فيه قوى الاختلاف المقوضة لكل تطابق، والمستبعدة لكل نقل أو استعادة، أي المكان الـذي تتواجه فيه بعنف الـدلالات مجردة من أي امتياز مثالي قد يجعلها حائزة على نفسها بشكل مطلق خـارج الزمن واللغة، محافظة على نفسها في قلب أي تحويل من لغة إلى أخرى. يعني ذلك أن الترجمة لن تكون أبـدا نقلا، مثلما أنها ليست عملا اختياريا أو قرار بشري. إنها ضرورة منبثقة من القدرة الداخلية للوجود نفسه ولكل لغة، والتي تدفعها إلى أن تتجاوز حدودها، وتعمل ضد استحالاتها.

يرتكز الأساس النظري للفرضية التي نقترحها على الفكرة الأساسية التي عرضناها في كتابنا " المجرى الأنطولوجي"[1]، و أساسا مفهوم " الفقدان الجـذري للمدلول" الـذي يكشف مكامن العمل الداخلي للترجمة في قلب كل لغة باعتبارها حيوية دائمة موجهة لنشاطها الموصوف كحركة لمواجهة قدر إفـلات الـدال للمدلول، بشكل يفسح المجال للكلام من حيث هو تكرار لتجربة حضور الدال لتعويض غياب المدلول. بنفس الدرجة التي يُستعاد فيها الأصل المترسخ كدلالة أو فكرة باعتباره شكلا من الفقد والإتلاف المُنتج، الذي يدفع دوال اللغة لاستدعاء بعضها وهي تتقفى أثر المدلول الغائب، لإعادة تشكيل هذا الغياب.

يكمن المسعى الأساسي هنا، في كشف مضمرات "فكرة الترجمة" وإبـراز جانبها الضروري، عبر تحديد الأساس الأنطولوجي الذي يجعل إمكانيتها ضرورة لا يمكن تفاديها. وهي ضرورة تظهر إلى أي حد لا يمكن أن تقف اللغة عند مستوى كونها مجازا من مجازات الوجود، أو قدرة على تسميته، بشكل يجعلنا نتساءل عن إمكانية وجـود خط واصل بين الأساس الأنطولوجي للترجمة وإمكانية تحويلها إلى أنثروبولوجيا، أي مجال كاشف لتجربة صميمية لدى الإنسان باعتباره كائنا يعاني في اللغة رغبته الأصيلة في العالم. تصبح هذه المعاناة التي تحفز قدرات البشر على تخطي حدود لغته، إشباعا لرغبته في العالم، مجالا لكشف المكان الذي يسكنه الكوني، الذي يعبر الإنسان ويتجاوزه،

* كاتب وباحث من المغرب

ويحوله إلى أحد آثاره.

يسكن الكوني اللغات، ويتوزع بين دلالاتها المتصادمة، ويخترق الإنسان من خلال سوء الفهم الثاوي في عمقها كطبيعة مؤسسة، وليس كمجرد نشاز قابل للتجاوز. فكلما كانت هناك حدود صارمة بين اللغات، أدركنا نشاطا للكوني، يحفز كل لغة على تخطي هذه الحدود، والتحرك في اتجاه النقطة الحاسمة لاستحالة ما هو مطلوب، اي أن تكون هي نفسها اللغات الأخرى المنبثقة إمكانيتها بالضبط من تعذر ذلك. فكل لغة تكون نفسها، لأنه يتعذر عليها أن تكون لغة أخرى. فيتحدد نشاط الكوني بوصفه القوة المباعدة بين اللغات وفي نفس الوقت، الدافع لان تتحرك كل واحدة منها في اتجاه الإمكانية القصوى التي تجعل منها لغة أخرى بالنظر إلى باقي اللغات. إذ لا تظهر قدرة للكوني إلا عندما ينكشف في شكل اختبار للذات في الآخر. أي في شكل نزوع جوهري لتجاوز الحدود التي عندها يتوقف كل شيء بالنسبة للذات، وتصبح متعذرة الحدوث. وهو ما يبعدنا بشكل حاسم عن الاعتقاد بأن اللغة في علاقتها بالكوني الذي يسكنها، تتكون باعتبارها تعيينا لكلية تتسع شاملة المتغيرات التي تشكل تعبيرا جزئيا عنها. بل إنه يكشف أن كل تراجع للغة نحو ما يمكن أن تتعرف عليه باعتباره أساسها الصافي المغلق في وجه أي نفاذ خارجي، يظهر أن كل دلالة مؤسسة على أفق يتجاوزها، يعين استحالتها وفي نفس الوقت يشملها بدافع لتجاوز هذه الاستحالة.

ويمنح أثر الكوني في اللغة، حركة تعمل كطاقة داخلية نشيطة تجعل كل دلالة تُبنى، تتحقق بوصفها حالة عدم اكتفاء. أي تجلي لحالة فقدان أولية، هي التي تشرط حدوث أي دلالة وتشكل أساسها. حينها يسعفنا أثر الكوني في اللغة، على اكتشاف أن الوحدة البدئية لكل لغة، ليست هي وحدة الدال والمدلول، هذا البناء الأليف لدى اللسانيين، وإنما وحدة الدال والفقدان الجدري للمدلول، أي هذا التشطيب الأولي الذي يؤسس كل تجربة للكلام على عمل أصيل للإتلاف، الذي يحول المدلول إلى وعد لمستقبل لا ينتهي. إنه شيء من المستقبل الذي لم يحصل بعد.

لذلك فإن كل لغة تطلق مسلسلا للأبدية، هو دائما ومنذ البداية خارج سيطرتها. أي شكل من اللانهاية الذي يتجدد مع كل تجربة للكلام. فالنقص الذي تعمقه هذه التجربة في عرضها الزائل، يعزز تلك الأبدية التي تتضخم انطلاقا منه، كحد براني منه يطل الآخر في وضعه المطلق، أي آخر اللغة والدلالة التي تتشكل منها.

لا توجد اللغة لأن هناك معنى يفوقها، يسبقها ويسبق الوجود، ويعرض نفسه مكتملا في الأبد الذي لم يبدأ بعد. وإنما لأن هناك تجربة أصيلة للانفصال تعاود نفسها مع كل محاولة لجعل العالم أفقا لأي شكل من الدلالة، الشيء الذي يجعل كل تحقق لها رهينا بانقسام بدئي، يتحقق فيه جزء بسيط، والباقي يظل منزلقا تحت الظهور الوشيك لما لا يمكن أن تدل عليه. وهو ما يعني أن اكتمالها لا يصير ناجزا إلا في فضاء الآخر الذي يمثل حدها البراني، الغريب عنها، والذي يمثل في نفس الوقت مصدر تخصيبها، لأنه يجعلها مخترقة دائما بواقع يتجاوزها، لا تستطيع استيعابه إلا في مستقبل مؤجل. وهذا هو النزوع الأصيل الذي يؤسس إبداعية اللغة.

عندما تندفع اللغة نحو حدها الأقصى، أي نحو ما لا يمكنها قوله، أي المعنى الذي ينزلق دائما بعيدا عنها، تمنح لنفسها القوة اللازمة لكي تستمر وأن تعاند لكي تظل مجالا لقول العالم. وليس ذلك لأنها تنطوي على معنى سري لا يمكنها الإفصاح به إلا للأجيال اللاحقة، وإنما لأن الجرح الذي يخلفه فيها الكوني الذي يعبرها، يؤججها على إعادة تفعيل الانقسام الذي منه تولد دلالاتها، والتي تجعلها تتحقق على حافة إمكانات اللغة خارج أي تماسك قد يفرضه الدال، مهيأة للانخراط في تلك الحركة التي تندفع خارج حدود اللغات، وعلى ضفافها.

العالم حركة بين اللغات. هذه الحركة التي لا تخص لغة بعينها، وإنما تحدث في تماس معها في اتجاه لغات أخرى. فالمتكلم الذي يدرك أن العالم هو ما تسميه لغته، تتحقق في عمق تجربته كمتكلم حقيقة أعمق تتمثل في أن العالم هو ما ينقص هذه التسمية بالذات، لأن هناك دائما ما يفلت منها في

نسق الخارج، فيما لا يستطيع القول أن يدل عليه لكنه يؤكده بعجزه، حيث تجد اللغة نفسها ملزمة بالصمت الذي لا يكون بالنسبة لها في هذه الحالة اختيارا و إنما ضرورة. حينها يظهر العالم ليس هو ما يسكن داخل لغتنا فقط، وإنما ما يتحرك بين باقي اللغات، أي ذلك الإمكان الذي منه يظهر أن ما نحوزه عليه من خلال لغتنا هو البقية الصغرى من ذلك الكل الكبير الذي يوجد هناك، خارج حدودها، حيث ينتعش عمل أعمق للمدلول خارج سيطرة تماسك الدال التي تسنده هذه اللغة.

إن متكلم اللغة المقدر عليه أن يفلت في كلامه هذا الكل الكبير، يتماهى مع رغبته التي تنبعث لديه مع كل تجربة كلام، والتي تتحقق كرغبة في العالم، وهي رغبة في سر الآخر الذي يقيم خارج لغته، والذي يتكون من الافتراض أنه يحوز على ما يفلت منه، المدلول الذي ينزلق بعيدا خارج أي سيطرة للدال، حيث يمكن للدلالة أن تحظى بالاكتمال، لكن في فضاء الآخر. لكن هذا الآخر هو دائما على الحدود البرانية لأية لغة، ومع ذلك يتحقق كقلق داخلي بالنسبة لها، معينا المعنى ليس كيقين ذاتي للغة وإنما كشرخ، وجرح لا سبيل للفكاك منه، فيه ينكشف الطابع اللا واقعي لسؤال المعنى وضرورته في نفس الآن. إنه مبدأ تشظي ماهية اللغة عينها، المطلوبة كقابلية للتكرار إلى ما لانهاية، لكن في الزمن الصغير لكل متكلم محتمل، الذي ينبغي أن يبعث مرة أخرى هذا الشرخ، لكي يستطيع تكليم اللغة، ويبسط هذا الأفق غير المسيطر عليه لمعنى منتظر، لكن في نفس الآن غير قابل للقول في نسق ذات اللغة، بل في المكان الذي يصبح فيه المعنى يقينا، أي في نسق الخارج، نسق الآخر، حيث لا يكون هناك من مكان تحتفظ به اللغة بنفسها سوى الصمت. في هذه الحالة فالإمكانية القصوى للقول، ستتساوى مع ما لا يمكن قوله. أي ذلك الذي لا يمكن قوله من داخل النسق، لكنه كان دائما قد قيل في الخارج الذي يعمل باعتباره فضاء تحقق المتعذر قوله.

وإذا كان العالم حركة بين اللغات، فإن ذلك يعني أنه مجال تقاطع ما يمكن أن تعينه اللغة بما يستحيل عليها تعيينه، وفي هذه الوحدة بين الإمكانية والاستحالة ينبع يقين العالم باعتباره ما يضم كل لا يقينيات النسق الداخلي لكل لغة، التي تأخذ موقعها في الحدود البرانية باعتبارها إمكانية دائمة ليقين ما قابل للتحقق في لغة مختلفة ممكنة. ومن هنا نستنتج أن العالم ليس هو اللفظ الذي يدل على الموجود في كليته، وإنما على الحركة التي ترتد في اتجاه كل اللغات عبر الاستحالات التي تشكل أساسها. حينها يظهر أن ما تستولي عليه اللغة هو عجزها الخاص، الذي يظل مسؤولا عن قوتها التي لا تُظاهى. وهو العجز الذي يجعلها تحت ضغط الحاجة الدائمة إلى اللغات الأخرى.

يظل تصور العالم باعتباره حركة بين اللغات، مشدودا إلى مفهوم عماء اللغة، والذي يعني أننا لا نرى إلا ما تتيحه كلمات لغتنا. الشيء الذي يدل على أن المعجم هو فهرسة مسبقة لما يمكننا رؤيته. ويستتبع ذلك أن ما تتيحه لغتنا يمنعنا من رؤية ما لا تتيحه. لكن الوجه الثاني من هذا العماء يتأسس هناك في لغة أخرى كفضاء جديد لرؤية ما هو محجوب عنا من داخل لغتنا. فما ينزلق بعيدا من لغتنا، يصير مضاء في لغات أخرى، أي مجالا للانكشاف كتجربة قابلة لأن تقال. حينها يغدو المشترك بين اللغات هو الكل الكبير الذي تفلته كل لغة على حدة، دون أن تتوقف عن ندائه. لذلك فإنها تبقي على إمكان المعنى من خلال حرب تخوضها ضد نفسها ، كما قال ديريدا.[2]

يتشابك مفهوم العالم بوصفه حركة بين اللغات، مرة أخرى، مع واقع أن اللغة لا تحوز سلفا على ما تريد قوله، إنها تطارد خارجا يولد منزلقا في منأى عن مجال سيطرتها، ومع ذلك فهي تواصل مطاردته، محطمة تعاقداتها البدئية بتوليد المزيد من المجازات التي تتولد من مجازات أخرى. وفي هذا العمل الدؤوب للغة يغدو كل شيء داخلها مترجما، أي محولا بموجب منطق المجاز الذي يتيحه. يكشف ذلك أن العملية الدائمة التي تتمخض عن اللغة وفي داخلها، لا يمكن أن يكون إلا ترجمة، أي عملية تكرار مستحيلة في الخارج لذات الشيء في

طبيعة أخرى مخالفة له. وفي هذه العملية بالضبط تصبح اللغة هي المجال الذي يعاني فيه الإنسان رغبته في العالم، أي في الإمساك بالشكل المتعذر من الآخر الذي ينتصب باعتباره مكمن اللغز، الذي يحوم حوله دون أن يطاله. إن ذلك يتعلق بانشطار أنثروبولجي غير قابل للاختزال، حيث لا تتقاسم الذات نفس الحيز مع مكان استيفائها لنفسها. فتتحول كل محاولة للاستكمال إلى تجربة يتعزز فيها الانقسام، طالما أن الذات لن تستوفي ذاتها إلا في الآخر، الذي لا يمثل فقط معنى المغاير بالنسبة لها، لكن مجرى الحياة الذي يستنفذها ويستمر بعدها. وهكذا فالرغبة في العالم، تجعل الآخر المتعذر على الإمساك، والذي يجدد وجوده على الضفاف البرانية للغة، لحظة فعالة في الوجود الخاص للإنسان.

يمكن أن نفهم من الرغبة في العالم التي يعانيها الإنسان كلما حين (actualiser) نفسه في تجربة الكلام، أنها رغبة في السيطرة على الغياب المنسوب إلى الآخر كرصيد حتمي. لكن ذلك يبدو مجرد استنتاج مريح لنرجسية الذات، لأن الآخر هو الحياة التي كانت وستبقى حاضرة بوجودنا أو من دونه، والتي تحجبها حدود لغتنا لكنها لا تستطيع أن تلغي حضورها. بل إن الغياب يستوطن بشكل فعال عمق الذات، إنها شكل من الغياب الذي يحيا في قلب وعي الزمن الذي يتحقق بالنسبة إليها كتجربة للحرمان كما قال فرديناند ألكيي.3 إنه يقين غياب الذات مقابل حضور الآخر هو الذي يتقوى في الرغبة في العالم. لا يعود ذلك إلى وعيها الدفين بأن أمر حياتها مقرر سلفا انطلاقا من القابلية للموت، حيث يكون كل ما يُعطاها مهدد بالزوال، وإنما لأنها تجد في الآخر مستقبلها الأبدي الذي لن يكون معادلا لفكرة زمن قادم، وإنما للحدث الذي سيضاعف الوجود، ويمكنه من الاستمرار، أي اليوتوبيا الكبيرة للأمل.

ظل ما لا يمكن إصلاحه في التجربة الإنسانية، مرادفا للموت الذي يعين الواقعة التي يستحيل ترميمها. لكن ما لا يمكن إصلاحه في اللغة لا يتعلق بموتها، وإنما بكون النصيب الأصلي من المعنى، يوجد خارج حدودها. لذلك فهي لا تتملك الأشياء إلا بالاستغناء عنها عبر بدائل لا تكافئها، معمقة عملها الذي تتحقق فيه طبيعتها كلغة، وهو جعل الأشياء التي تدخل تحت تصرفها قابلة للتعقل، عبر عملية اقتصادية صرفة تشكل جوهرها يتحد فيها التبديد بالادخار. فهي تبدد طبيعة الشيء، لتدخر ما ينوب عنه، بنفس القدر الذي تتلف فيه الحدث تحت قدر التسمية التي تغدو المكان الوحيد لتخزين أثره، يصير قابلا للتعيين من قبلها لكن بعد أن يكون قد فقد طبيعته كحدث. وهو ما يجعلنا نعتقد أن اللغة تبتكر أشياء بطبيعة جديدة، حيث يكون فعل التسمية هو المساحة المثالية لتخزين الفقدان الحتمي للأشياء داخل اللغة. فما يدوم في التسمية هو إتلاف المسمى.

لا تملك اللغة أي نفوذ إزاء هذه العملية، بحكم المنطق الاقتصادي الذي يحكمها، والذي يتركز في التبادل، أي في جعل كل شيء قابل لأن يبادل انطلاقا من التخلي عن نفسه في العلامة، التي يصبح معها فكرة تملأها الميولات والرغبات والأهواء أكثر من طبيعة الشيء. وكما قال هانس جورج غادامير " إن الشيء الذي يقف قبالتي إنما يؤكد حقوقه الخاصة ويقتضي اعترافا مني." 4 فإن هذه الحقوق لا تتأكد في أن يصبح الشيء مفهوما، كما قال، ولكن في أن يُنكر في اسمه. إذ أن ما يُعبر عنه في اللغة ليست الأشياء وإنما رغبتنا فيها، إنها بمعنى ما المسافة التي تفصل الأشياء عما نقوله عنها. وهي المسافة التي يتأسس فيها كل ما هو إنساني، حيث يكون على هذا الكائن الذي فقد أثر الأصل أن يتحمل مهمة الترجمة كمهمة أبدية، أي أن يعمل، كما يفعل مع نفسه، على تمييز وجود الأشياء في كينونة أخرى.

يتبين من خلال ما سبق أن الترجمة منظورا إليها باعتبارها تأويل معنى ولد في لغة محددة داخل لغة أخرى، لا يمثل سوى جانب قاصر ومغرق في تقنيته من الترجمة، والأكثر منه أن ينظر إليها باعتبارها ضمان انتقال آمن لذات المعنى من لغة إلى أخرى، أو بحثا عن مساواة للذات في الآخرية. إنها بالأحرى عمل أشمل ملازم للإنسان الذي يدرك

انطلاقا من رغبته، أن طبيعته لا تحقق ما ينبغي أن يكون انطلاقا من هذه الرغبة. إذ أن الترجمة تظل مهمة أبدية ملازمة للإنسان، ليس لأن هناك معنى يولد وإنما لأن هناك معنى قد انتفى. والكلمة الأولى في اللغة لم تكن سوى ترجمة انتفى أصلها، فنصبت نفسها أصلا. لذلك لا يتحقق أي شيء في التجربة الإنسانية إلا وهو مترجما. وقد كان مارشال ماك لوهان حصيفا عندما اعتبر التكنولوجيا والميديا استعارات من حيث قدرتها على ترجمة التجربة في أشكال جديدة، و " الكلام كان أول تكنولوجيا سمحت للإنسان أن يتخلص من وسطه ليعيد تحصيله بطريقة أخرى."[5] لذلك ستظل الحياة بالنسبة لهذا الكائن مرادفة للترجمة، عندما يتكلم فهو يترجم، عندما يعمل فهو يترجم، عندما يحيا فهو يترجم، لتكون آخر ترجمة بالنسبة له هي فعل الموت، حيث يترجم الجسد نفسه في نهايته.

إن الوجود الحيوي للأشياء يدخل مجال التجربة الإنسانية، انطلاقا من انزلاقها خارج الوجود الإنساني الذي يشرع في تملكها عبر الإبقاء على المسافة التي تفصله عنها في الوعي، وهو ما يسمى من وجهة نظر فينومينولوجية بالقصد، حيث يمكنه أن يلمس الأشياء مفصولة عن نفسها في طراز آخر من الوجود يحدده الوعي، يتحقق في الاسم، الذي يقوم بوظيفة من يمسك بالماهية الشاملة للشيء. في هذه الحالة، يبدو مرة أخرى أن لا مفر من الترجمة، إذ ليس هناك من مناص من ترجمة الشيء إلى ما ليس إياه، ومع ذلك ينسب إليه برابطة الاسم، الذي يغدو الرحم الذي تتجمع فيه الماهية المحضة للشيء، اي الماهية التي لا يمكن أن تؤخذ إلا على أساس ما هو ممكن تصوره من هذا الشيء. وهو ما يقودنا إلى الاستنتاج، أن اللغة كعرض symptôme من أعراض التسمية، ليست في فعلها التأسيسي سوى ترجمة، تتوغل كلما زاد الإصرار على الوضوح، حيث الكلمات توضح بعضها، على قاعدة ما ليس واضحا الذي يتشكل كخلفية مسبقة لكل ممارسة لغوية، منبثق من الفجوة التي لا تردم بين الكلمات والأشياء. حيث أن الاسم لا يكافئ الشيء، لكنه يلغيه لكي يجعله مدركا، يلغيه في المحتوى المثالي المترتب عنه، الذي يأخذ موقع الدلالة، التي نحصل من خلالها على الشيء وقد أفرغ من نفسه، مع الإصرار على تعيينه كشيء.

و مثلما قال هانس جورج غادامير" اللغة شيء أكبر من وعي المتكلم"[6] فإن كل متكلم بمجرد ما يحرك اللغة يجد نفسه متورطا سلفا في الترجمة، إنه مُلزم بحدود هذه العملية المكونة لجوهر اللغة في اتجاه الأشياء المتلفة في قلب التسمية، والمعوضة بمثالية الدلالة كأثر لفقدانها الحتمي. لكن هذه الدلالة مفقودة هي الأخرى في أثر الكلمات التي تشكلها، والتي تدخل في استحضار بعضها، في محاولة لردم هوة ما هو غير قابل للقول، والذي يواصل حضوره في قلبها، معرضا إياها لعدم اكتفاء أصلي لا يمكنها تجاوزه. و لأن اللغة بدأت كترجمة، فكل ما يحدث داخلها يظل استرسالا لذات العملية، إنها تمثل الصورة الضرورية التي تعين الطريقة التي يمكن بها المرئي أن يعقد صلة بما ليس مرئيا، بنفس القدر الذي يكون فيه ماهو مدرك متاحا انطلاقا مما لا يمكن إدراكه[7]، أي ذاك الذي اتحد في المنظومة الكانطية (نسبة إلى إمنويل كانط) تحت اسم "النومين".

إن اللغة التي تمثل الآخر الكبير، أي بنيته الرمزية التي تسبق الذات[8]، تنكر البرانية في داخلها، لكنها لا تتمكن أبدا من إلغاء وجودها الفاعل فيها. فالأشياء وقد تُرجمت أسماء، تتحول إلى قوة منهكة للغة، جاعلة كل دلالة، مجرد وعد بالدلالة لن تفي به اللغة أبدا، إنها تصادر على جود مثالي ينزلق باستمرار في وجود مثالي يفوقه، إلى ما لا نهاية، حيث تكون هذه اللانهاية هي الفراغ الحتمي الذي يتحرك في قلب كل وعد بالدلالة، تاركا أثره الحي في شكل كلمات تسترسل في الحديث عن بعضها.

(البقية بموقع المجلة على الانترنت)